

تطبيق المناهج المعاصرة في النقد الأدبي انفتاح أم أزمة تربوية

أ. آمال منصور

جامعة محمد خيضر - بسكرة

الملخص

تحاول هذه المحاضرة أن تسلط الضوء على واقع تدريس المناهج النقدية المعاصرة في الجامعة الجزائرية، و التي أصبحت تشكل أزمة تربوية تحتاج إعادة النظر في أساليبها و أدواتها، و معوقاتنا في التدريس و صعوبتها في التقييم العادل، و بالتالي محاولة إيجاد حلول ممكنة لتخطي هذه الوضعية.

Résumé :

Cette communication tente de jeter un éclairage sur les difficultés des procédés de critique contemporaine dans l'opération éducative surtout dans le domaine de structuralisme et de la sémiotique.

Ces derniers constituent une crise dans le domaine éducatif ce qui nécessite la remise en cause de ces technique et des obstacles éducatif aux quels elle se heurte , et ainsi trouver les solutions possibles pour dépasser cette position négative.

كانت الميزة العلمية و انفتاحها على العلوم الطبيعية و الدقيقة أشد الخصائص أهمية و خطورة في الوقت ذاته.

هكذا ظهرت البنوية "structuralisme" التي أسست أرضيتها الصلبة على مفهوم "البنية" structure وتحويلاتهما، هذا المفهوم الذي شاع في علم الاجتماع على يد "كلود ليفي شتراوس" و"لوي ألتوسير" و في علم النفس التحليلي من خلال مؤلفات "ميشال فوكو" و "جاك لاكان"، و إذا حاولنا تحديد البنوية فإننا يجب أن نسلم بالمقولة الآتية لـ "جان بياجيه" « إنّ البنية تكفي بذاتها و لا تتطلب لإدراكها اللجوء إلى أي من العناصر الغريبة عن طبيعتها ⁽¹⁾ » ، و تبدو البنية حسب هذا الطرح مجموعة تحويلات تحتوي على قوانين كمجموعة لا تتعدى حدودها، و لا تستعين بعناصر خارجية و تتألف البنية من ميزات ثلاث

- الجملة "la totalité".
- التحويلات "les transformations".
- الضبط الذاتي "l'autoréglage".

الجملة "la totalité" تتشكل البنوية- طبعا- من عدة عناصر و لكن هذه العناصر تخضع لقوانين تميز المجموعة كمجموعة؛ هذه القوانين المسماة تركيبية لا تقتصر على كونها روابط تراكمية، و لكنها تضيف على الكل ككل خصائص المجموعة المغايرة لخصائص العناصر، الأعداد الصحيحة- مثلا- لا توجد على انفراد بل يتم إظهارها تبعا لتسلسل الأعداد، لكن ميزة الجملة تثير عددا من المشاكل أولها هل الجملات التركيبية مركبة دائما؟ فعندما قال "دور كايم" « إنّ الكل الاجتماعي ينبثق عن اجتماع الأفراد كما تنبثق الجزيئة عن اجتماع الذرات ⁽³⁾ » ، كان عليه تذكيرنا بأنّ الكل يختلف عن مجرد جمع لعناصر مقدمة ⁽⁴⁾.

التحويلات "les transformation" إذا اعتبرنا إنّ ميزة الجملات البنائية تتمسك بقوانين تركيبها، تكون عندئذ بناءة بطبيعتها، و تفسر هذه الازدواجية الثابتة بأنها تكون بناءة و مبنية، مثل مفهوم "النظام" عند "كورنو" في الرياضيات، حيث لا يمكن لنشاط بنائي إلاّ أن يقوم على مجموعة تحويلات ⁽⁵⁾.

مثال الفرق الرياضية(الأكثر بساطة) تقوم على هذا النوع من التحويلات، $2=1+1$ ، أو

2 تلي 1.

الضبط الذاتي "l'autorégulation" و يعني أن البنيات تستطيع أن تضبط نفسها للمحافظة على جنسها، و تحقق نوعا من الانغلاق و بتعبير أبسط إن التحويلات الملازمة لبنية معينة لا تؤدي إلى خارج حدودها، و لكنها لا تولد إلا عناصر تنتمي دائما إلى البنية ذاتها و تحافظ على قوانينها.

مثال: حين نجمع أو نطرح مطلق عددين صحيحين نحصل دائما على أعداد صحيحة. لعل هذا المفهوم يعزز بشكل كبير أهمية الآمال التي تنيرها الميادين التي تبنت البنيوية منها لها، لأننا حين نتوصل إلى حصر حقل معين من المعارف ضمن بنية مضبوطة ذاتيا، يخيّل إلينا أننا نمتلك المحرك الخاص للنظام.

هكذا استقت البنيوية النقدية هذه المفاهيم الثلاث المركزية – الأنفة الذكر – لإرساء ذاتها كمنهج صارم في تحليل الخطابات اللغوية، حيث استطاعت أن تستغل مفهوم الفريق Groupe (***) في الرياضيات، كما استوحى مؤسسها "فرديناند دي سوسير" نظرية التوازن المتزامن، و أيضا فعل "ليفي شتراوس" حين استنتج نماذج البنيوية من الجبر العام.

أقامت البنيوية قاعدة علمية للنقد الأدبي المعاصر لا يمكن تجاهلها، و حملت الكثير من الحسنات، لكن كما يقال "كل نظام يحمل بذور فناءه، فقيامها على النزعة اللاإنسانية (وتغيبها للذاتية، وطمسها للتاريخ و علاؤها العقلانية على حساب الروحية، و قصر الحياة لتكون مجرد نسق في منظومة مغلقة)⁽⁶⁾ جعل ضوؤها يختفي وسط عتمة مخبرية، ليظهر منهج جديد يصحح مسارها، و اعترف أصدقاؤها بفشلها الذريع و على رأسهم "رولان بارت" Roland Barthes الذي عبّر عن رغبته في تجاوزها كما ساندته "تريفان تودوروف"، حيث اختاروا مسارا آخر، علّ هذا المسار ينجح في إضاءة دهاليز النص و الثقافة بعامة؛ ألا و هو "المنهج السيميائي".

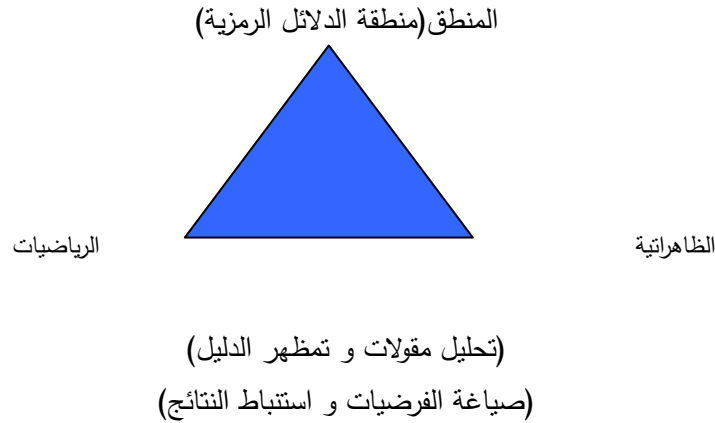
تأسست السيميوطيقا "sémiotique" على يد العالمين ferdinand de saussure و charles sanders peirce وهي « علم الإشارة الدالة مهما كان نوعها و أصله »⁽⁷⁾، و هذا يعني أن النظام الكوني بكل ما فيه من إشارات ورموز هو نظام ذو دلالة، فهي إذن علم يدرس بنية الإشارات وعلاقتها في هذا الكون، و يدرس بالتالي توزيعها و وظائفها الداخلية والخارجية.

اتخذت السيميوطيقا طابعا علميا مثل سابقتها، باعتبار مؤسسها الفعلي "بيرس" كان عالما رياضيا منطقيا، فهو الذي حدد موضوعها (***) في دراسة جميع المعارف الإنسانية إذ يقول أنه لم يكن في استطاعته أن يدرس أي شيء كان،

الرياضيات، الأخلاق، الميتافيزيقا، الجاذبية الأرضية، الديناميكية الحرارية، والبصريات والكيمياء، وعلم التشريح المقارن وعلم الفلك، وعلم النفس، وعلم الصوتيات، وعلم الاقتصاد و تاريخ العلم، والكلام والسكوت، والرجال والنساء، والنبذ و علم القياس والموازن إلاّ كنظام سيميوطيقي⁽⁸⁾.

وعند "بيرس" يرادف المنطق السيميوطيقا، إذ يقول « إنّ المنطق بمعناه العام، ليس سوى تسمية أخرى للسيميوطيقا »⁽⁹⁾.

فالسيميوطيقا- إذن- عند بيرس مبنية على المنطق والرياضيات والظاهرانية^(***) على النحو الآتي



قدّم "بيرس" طرحا ثلاثيا جديدا للعلامة، بدل الطرح الثنائي الذي قدّمه "سوسير"، و يقوم على أصل "رياضي"، و يمكن تمثيله بالمخطط الآتي

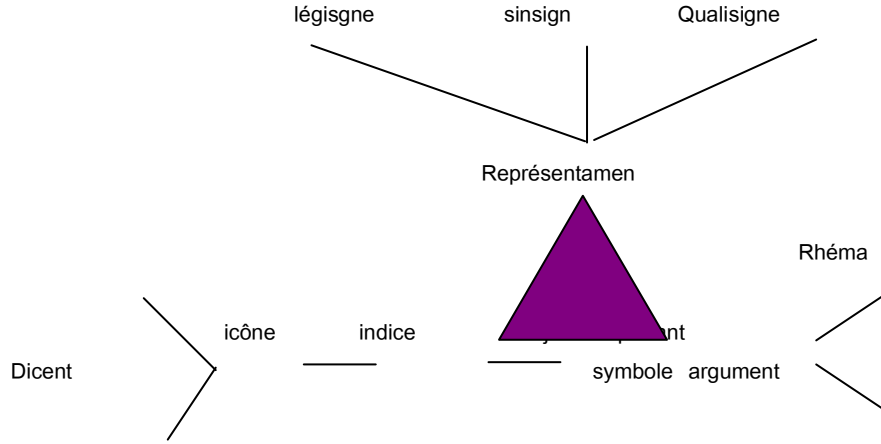


Représentamen و يقابل " الدال " عند سوسير .

Interprétant يقابل " المدلول " عند سوسير .

Objet لا يوجد له مقابل في عرف سوسير، و هو يعني الوجود الواقعي للشيء.

و تتفرع العلامة حسب الشكل الآتي



هكذا اعتمدت المناهج النقدية المعاصرة على مبادئ علمية، و حاولت أن تخضع الظاهرة الأدبية لقوانين دقيقة عسى أن تتجح في مقارنة الخطابات.

2- أساليبها و أدواتها

قامت المكناهج النقدية على الإيمان بفكرة إخضاع الظاهرة اللغوية و الأدبية لمراحل الاستنباط العلمي، أي تحويل الدراسة النقدية دراسة علمية، و هذا يعني الانتقال من "النقد" critique إلى "علم النقد" science de critique ، و العلم كما عرفه "فارنت" J.s.varant في كتابه "مبادئ التربية و تطبيقاتها" "principles and practice of education" بأنه « النظام الذي يعمل الفرد من خلاله على زيادة معرفته عن العالم الطبيعي من خلال الملاحظة، التحليل، التجربة و القياس (الاستنباط déduction) و يستخدم التفسير و التجريب و الظواهر الطبيعية للوصول إلى الحقائق » (10).

كما تميل "سلمى زكي الناشف" في كتابها "طرق تدريس العلوم" إلى تعريف العلم بأنه « عملية بحث في أي مجال من مجالات المعرفة، و تشمل هذه العملية الملاحظة و جمع المعلومات و فرض الفرضيات و التجريب و التفسير و التعميم، بحيث ينتج عن هذه العملية إضافات جديدة من المعرفة أو تأكيد لمعرفة سابقة » (11).

و على هذا الأساس، ما دامت تطمح إلى هذا التحول -حتى و إن اختلفت الآراء بشأنه إذا كان إيجابيا أو سلبيا- فإنها يجب أن تعتمد على وسائل العلم و أدواته للوصول إلى نتائج موضوعية و لتكون علما بحق، لذلك اعتمدت على الأدوات الآتية

1-1- الرسوم البيانية

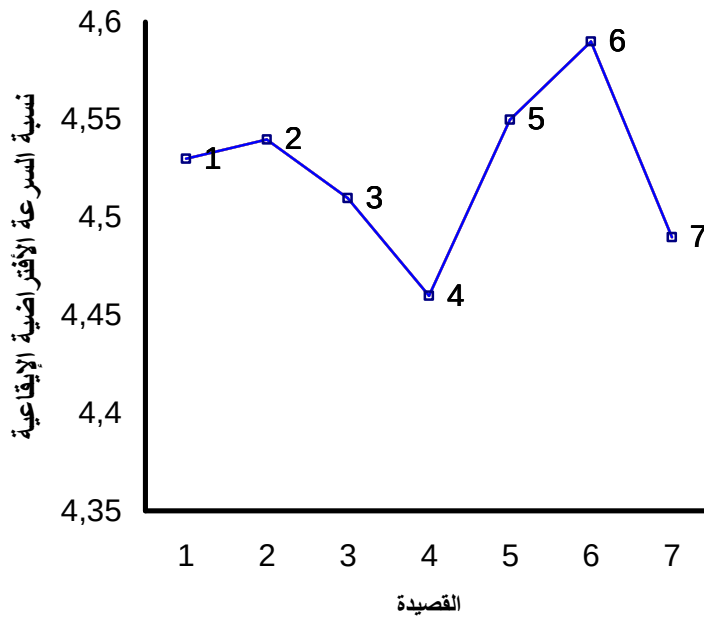
- الخطوط البيانية Line graphs.

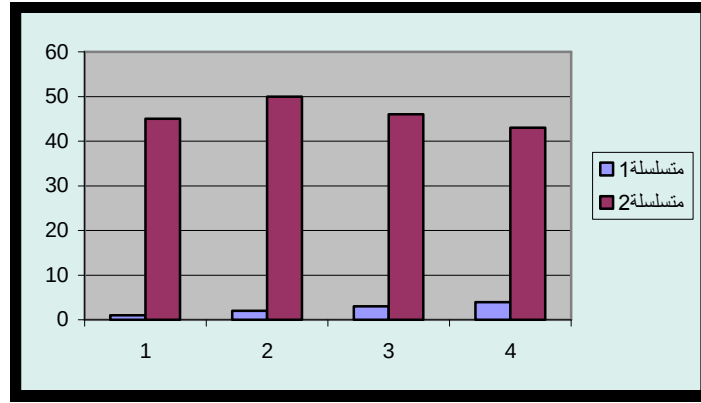
- الأعمدة البيانية Bar graphs.

- الدوائر البيانية Pile(circle).

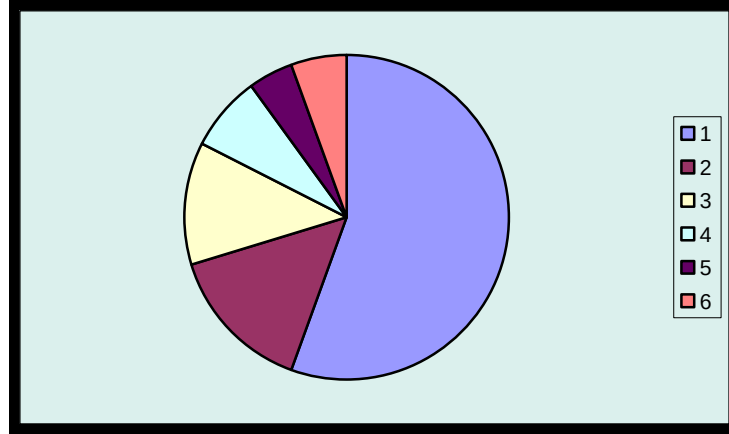
مثال (الخطوط البيانية)

منحني بياني يمثل تغير نسبة السرعة الافتراضية الإيقاعية
في القصائد القصيرة في ديولن أغاني مهيار الدمشقي
الأدونيس





أعمدة بيانية



الدوائر البيانية

1-2- المعادلات : مثل :

في الإيقاع :

6 عدد المقاطع ق + 3 عدد المقاطع ط + 2 عدد المقاطع ز الطول

سر = —

الجملة

في السرد :

ملفوظ سردي متصل ف(ذ) = (ذ □ م) ← (ذ □ م)

ملفوظ سردي منفصل ف(ذ) = (ذ □ م) ← (ذ □ م)

1-3- المصورات و الرسوم التخطيطية مثلما هو موضح في العنصر السابق.

1-4- استعمال أجهزة متنوعة

مثل:

- جهاز عرض الشفافات (over head projector).
- جهاز قياس الذبذبات الصوتية (l'oscillographe).

3- معوقاتها و واقع تدريسها في الجامعة الجزائرية

يطمح أي مدرس أن يتقن عمله، و أن يتمه على أكمل وجه، و لهذا فهو يبحث دوما عن الطريقة الأكثر مناسبة و نجاحا في تحقيقه لأهدافه التي يرسمها⁽¹²⁾، و يمكن أن نلخص المبادئ التي ينصح بتوافرها لتكون عملية التدريس أكثر نجاحا و فاعلية، و انسجاما مع الأهداف الخاصة و العامة للتدريس

- مناسبة الطريقة للأهداف

حين يتم تحديد الهدف عن طريق الصياغة السلوكية الواضحة، يتم معرفة الطريقة المناسبة، و تتحدد الوسائل التعليمية بمعرفة الطريقة المناسبة، و يصبح مسار المدرس واضحا ثابتا لا تشوبه الحيرة أو اللبس و الغموض⁽¹³⁾.

- مناسبة الطريقة للمحتوى

إن نوعية محتوى المادة التعليمية يساعد إلى حد كبير في اختيار الطريقة المثلى للتدريس، و هذه بدورها تساعد في اختيار الوسائل التعليمية المناسبة، و معرفة المدرس لما هو مطلوب منه تدريسه⁽¹⁴⁾.

- مناسبة الطريقة للطلبة

المتعلمون هم الأساس و حجر الزاوية في عملية التعليم و التعلم، و هم بهذا، الهدف الأسمى لهذه العملية، و المطلوب هو تنشئة سليمة متكاملة لهم من جوانب شخصياتهم المتعددة كالجوانب المعرفية و الوجدانية و النفس حركية، و لا يتأتى ذلك إلا بمعرفة و إطلاع المدرس على قدرات و قابلية و حاجات و استعدادات طلبته، و كذلك بمعرفته لمبدأ الفروق الفردية، فهم يختلفون مدى فهمهم و ذكائهم و خبراتهم و معارفهم و ميولهم و رغباتهم و حاجاتهم⁽¹⁵⁾.

لكن هذه المبادئ - للأسف- يعتمرها الكثير من النقص في إطار تدريس المناهج النقدية، حتى بدا الطالب في "قسم الأدب العربي" لا يحسن استعمال أي منهج، و هذا يعود إلى نوعين من المعوقات

أ- معوقات مادية

ب- معوقات بشرية

أ- معوقات مادية و تتمثل في

- عدم استعمال الوسائل و الأدوات - المذكورة آنفا- في النشاط الصفي.

ب- معوقات بشرية و تتمثل في

- انتماء الطلبة في المرحلة الثانوية لشعبة أدبية، و بالتالي يستعصي عليهم فهم هذه المبادئ العلمية.

- غياب التمارين التطبيقية في مقياس "النقد المعاصر".

- غياب مشاركة الطلبة في حل التطبيقات إن وجدت.

إضافة إلى معوقات أخرى

- الروتين و هو من أكبر الآفات التي أصابت الدول العربية على وجه عام، ويعوق الروتين عملية التطوير، لأنه يعمل على الحد من الحركة، ويضاعف المشكلات⁽¹⁶⁾.
- عدم الاقتناع بأهمية التطوير و دوافعه و شدة الحاجة إليه⁽¹⁷⁾.
- قد يكون للمناخ تأثيره على مدى فعالية التطوير⁽¹⁸⁾.
- انتشار الأمية بنسبة عالية له تأثير كبير على عملية التطوير، فكلما زادت نسبة الأمية كثرت العقبات، وزادت العراقيل التي تعترض مسيرة التطوير⁽¹⁹⁾.

4- حلول و اقتراحات

لعلّ عملية "التطوير" في أي مجال من المجالات تتصف بميزتين أساسيتين

- 1- الشمولية لأنها عملية تستوعب جميع العوامل والعناصر التي لها صلة بالموضوع المراد تطويره.

- 2- الديناميكية جميع العناصر هي في تفاعل مستمر، وكل عنصر يؤثر ويتأثر بالآخر. لذلك نقترح الحلول الآتية

- على المدرس أن يضع في الحسبان - و قبل كل شيء- نوع الشعبة التي كان طلبته ينتمون إليها، و كذا مستوياتهم التحصيلية، فلا ينتظر فهما عميقا لقضايا علمية من طلبة كانوا ينتمون لشعبة أدبية.
- إنه إذا أردنا تحسين مستوى الطلبة مثلما هو عليه في الدول المتطورة، يجب أن يمس التطوير جميع عناصر التربية الوسائل، الأجهزة، الكتب،... فلا يمكن أن نتوقع نتائج جيدة إذا غيرنا في المقررات فقط.

- على المدرس أن يستعمل أكثر من طريقة في الحصة الواحدة و على مدار السنة الدراسية، لكي يمنع تسرب الملل إلى نفوسهم، و يبقوهم في حالة اهتمام بالمقياس، و يجعلهم في حالة نشاط دائم.
- إذا أردنا أن نغير من مقررات "النقد الأدبي"، و نحولها ذات طابع علمي موضوعي، علينا أن نوفر تكوينا عاليا للأساتذة في المقاييس العلمية.
- إشراك المتعلم في حل التمارين - مثلما هو عليه في الشعب العلمية- ففيه يتاح للمتعلم إدراك أخطائه، أو من خلاله يتم معرفة الأشخاص المبدعين والعباقرة(****).
- إن تقديم المناهج النقدية عن طريق "المحاضرة"، يجعل درجة التجريد بها عالية، فهي تبعد عن المحسوس بدرجة كبيرة، لأن المعلم يعتمد على الألفاظ، وهذا ما لا يتناسب مع محتوى المادة المدروسة، إضافة للعدد الكبير للطلبة الذي يضاعف صعوبة الفهم الجيد، وعليه يجب أن ترفق المحاضرة بالتطبيق لتعميق المعلومات الواردة في المحاضرة.
- صياغة المحاضرة التطبيقية على الطريقة العلمية الفرضيات، التجربة، النتيجة، وهذا يؤدي إلى زيادة اهتمام الطلبة بالموضوع وميلهم له، مما يترك أثرا أكبر في تعلمهم.
- الأخذ بالاتجاهات العالمية الحديثة، والاستفادة من خبرات الآخرين الذين قطعوا شوطا طويلا في طريق التقدم.
- البحث العلمي المستمر والدائم للقضاء على كل أوجه الضعف، وتلافي القصور، لأنه أساس كل عملية ناجحة.

الإحالات

- (*) عرف "كلود ليفي شتراوس" بكتابه الشهير "البنى الأولية للقرابة" عام 1949.
- (1) د/ عبد الله محمد الغدامي، الخطيئة و التكفير، النادي الأدبي الثقافي، السعودية، الطبعة الأولى، 1985، الصفحة 26.
- (2) جان بياجيه، البنيوية، عارف منيعة و د/شبير أوبري، منشورات عويدات، بيروت/ باريس، الطبعة الرابعة، 1985، الصفحة 8.
- (3) المرجع نفسه، الصفحة 9.
- (4) المرجع نفسه، الصفحة 11-12 .
- (5) المرجع نفسه، الصفحة 13-14.
- (**) الفريق مثال الأعداد الصحيحة السالبة و الموجبة تجمعها عملية تركيب كالجمع مثلا، و يحتوي الفريق على عنصر محايد ك "الصفر" مثلا، بحيث إذا ركب مع عنصر آخر لا يحدث فيه تغييرا (س+0=0+س=0)، كما يحتوي أيضا على عملية عكسية (الطرح مثلا) بحيث تعطي العنصر المحايد +س-س= -س+س=0.
- (6) ينظر د/ حبيب مونسي، القراءة و الحداثة، مقاربة الكائن و الممكن في القراءة العربية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، سوريا، 2000، الصفحة 137.
- (7) بيبير جيرو، علم الإشارة "السيمولوجيا"، د/ منذر عياشي، دار طلاس للدراسات و الترجمة و النشر، سوريا، الطبعة الأولى، 1988، الصفحة 9.
- (***) نشرت كتابات بيرس حول العلامة بعد وفاته في collected papers.
- (8) المرجع نفسه، الصفحة 10-11.
- (9) د/ جميل حمداوي، السيميوطيقا و العنونة، مجلة عالم الفكر، مج 25، العدد 3، الكويت 1997، الصفحة 84.
- (****) الظاهرية *phénoménologie* و يسميها بيرس بـ *l'idioscopie* و هي مذهب فلسفي معاصر يهتم بدراسة الظواهر دراسة وصفية خالصة للوصول إلى محتواها أي ماهيتها.
- (10) سلمى زكي الناشف، طرق تدريس العلوم، دار الفرقان للنشر و التوزيع، مصر، الطبعة الأولى، 1999، الصفحة 11.
- (11) المرجع نفسه، الصفحة 13.
- (12) المرجع نفسه، الصفحة 35.
- (13) المرجع نفسه، الصفحة 35.
- (14) المرجع نفسه، الصفحة 36.
- (15) المرجع نفسه، الصفحة 37.
- (16) ينظر د/ حلمي أحمد الوكيل، تطوير المناهج، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، 2000، الصفحة 214.
- (17) المرجع نفسه، الصفحة 214.
- (18) المرجع نفسه، الصفحة 216.
- (19) المرجع نفسه، الصفحة 217.
- (*****) أوصى بذلك جابر بن حيان، و علماء التربية الغرب المحدثين مثل/ سكينر، جون ديوي.